كلمة فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة
رئيس الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

بمناسبة
إفتتاح فعاليات مؤتمر وزراء الثقافة لمنظمة المؤتمر الإسلامي
الجزائر يوم 15 ديسمبر 2004

حضارتنا الإسلامية تأسست على الرحمة والمحبة والسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها السادة الأفاضل، أيتها السيدات الفضليات،
السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

لا مراء في أن اختياركم الموفق إن شاء الله، لعقد اجتماعكم بهذا البلد – الآمن بكم– يحمل أكثر من مغزى ودلالات تاريخية ودينية واجتماعية، ففيه حظـــي الإسلام الحضاري في عنفوانه وأوج انتصاراته بالترحاب والقبول، ودخل الناس فيه أفواجا.

ومن هذا الصقع انطلقت راية الإسلام خفاقه بالطلائع الأولى للفاتحين إلى أوروبا، لا قوة لهم إلا في إيمانهم ولا منعة إلا في حصن عقيدتهم باذلين النفس والنفيس لإعلاء كلمة الحق الذي لا جَمجَمة فيه.

وفي هذا البلد التأم شمل الأمير عبد الرحمن الداخل الذي لقبه المنصور بـــ (صقر قريش) واعتضد بأخواله البربر وعبر بهم العدوة إلى الأندلس فقضي على الفتن ومكن للعرب المسلمين من بني أمية في أرض الأندلس الطيبة، ليؤسسوا حضارة فريدة، انصهرت في بؤتقها جميع الأعراف والديانات لتشع بنورها على العالم قرونا عديدة كشجرة باسقة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

كما كان هذا البلد الملجأ الأمين للفارين بمذاهبهم وعقائدهم من بطش المتطرفين والمغالين، فيجدون الأمن والأمان بين أحضان أهله المتعطشين دوما إلى العلم والمعرفة، مما خلق روحا من التسامح والتعايش بين مختلف الآراء والمذاهب والأجناس.

وكان مذهب الإمام مالك الذي بسط نفوذه على المنطقة كلها تجسيدا لروح الوحدة والتآلف، لا تعبيرا عن التشدد والتضييق كما يزعم البعض، ولا أدل على تلك الروح السامية من التسامح والحرية، من ذلك الإمام الكبير الذي قيل إنه كان يحكم بين الناس في قرطبة بتطبيق مذهب الإمام مالك وهو يعتنق مذهبا آخر.

ذلكم هو الوجه المشرق والمثل الساطـــع لتلك الحضارة التي أسس بنيانها على العدل والمساواة والرحمة بين البشر أجمعين.

ولكن هذا البلد كما تعلمون جميعا عرف أفولا وكسوفا في بعض مراحله التاريخية، وآخرها تلك الفتنة المدمرة التي أهلكت الزرع والضرع وراح ضحيتها عشرات الآلاف من الأبرياء، لم تستثن الرضع ولا الأطفال والشيوخ. وكادت دولتنا الشامخة، لولا لطفا من الله، أن تنهار تحت ضربات معاول الإرهاب والتطرف الأعمى باسم الإسلام وهو منه براء، لا جدال ولا مرية في ذلك. وهاهو الآن ينهض من كبوته ويستعيد عافيته وعنفوانه ماضيا إلى غايته في سبيل تحقيق المصالحة والوئام بين أفراد شعبه، متطلعا إلى غد مشرق مستنيرا بالآية الكريمة "... ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ...".

فبين أحضان هذا الشعب الكريم المضياف وعلى هذه الأرض الطيبة المعطاء أرحب بكم أعز ترحيب وأتمنى لكم إقامة ميمونة مباركة، فحللتم جميعا أهلا ونزلتم سهلا.

أيها السادة الأفاضل، أيتها السيدات الفضليات،

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ".

أفتتح معكم وقفتي بهذه الآية الكريمة الجامعة المانعة في مضمونها الذي لخص المبادئ الإسلامية الشاملة التي بشرت بها الرسالة المحمدية، فهي رسالة سماوية موجهة إلى

الناس كافة ولا تخص بشرا دون آخرين ولا أمة دون غيرها، ومن ثم اعترفت بضرورة الاختلاف في الجنس والفكر والمعاش، لأن الاختلاف بين البشر في الإسلام هو السنة الثابتة "وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا".

وهذا الاختلاف يستدعي بالضرورة العقلية والمنطقية الاعتراف بوجود الآخر وحقه في الحياة والحرية في تنظـيم حياته بالوجه الذي يلائمه ويرتضيه من دون إكراه.

وذهب الإسلام بعيدا في احترام حقوق الإنسان حتى في العقيدة التي يعتنقها "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" وفي آية أخرى "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ" وقوله تعالى مخاطبا نبيه الكريم : "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ" على عصمته ومكانته عند الله.

وإذا سلمنا بحث الأخر في الاختلاف، لأن الاختلاف رحمة، فلابد من مواجهة الذات بالنقد والتخلص من عقد الاضطـهاد والأفكار المسبقة التي تجعل من الآخر عدوا مفروضا علينا، يتحكم في زمام أمورنا، فنستكين إلى القهر والغلبة، وننحى بعدها باللائمة على القدر والظـروف، فلابد والحال هذه، أن نسعى جاهدين، إلى تغيير ما بأنفسنا، قبل أن نجترئ على لوم غيرنا فـ " إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ".

ونتساءل خالصي النية: هل نحن أصحاب الرسالة؟ وإذا كنا كذلك، فما هو دورنا الإنساني في هذا الكون؟ لأن الله لم يخلق الإنسان عبثا بل شرفه ليكون خليفته في الأرض، كما أشارت الآية الكريمة، التي افتتحنا بها هذه الكلمة، إلى نتيجة الاختلاف وهو التعارف بين البشر والأمم، وذلك لا يتأتى إلا عن طريق مد جسور الحوار والتفاهم والتآخي والألفة وتبادل المنافع ودفع المضار.

إن الحوار بين الحضارات الذي حملت لواءه حضارتنا الإسلامية منذ نشأتها الأولى ونادى بها بعض المتنورين من الغرب والشرق ليس ترفا عقليا نملأ به أوقات فراغنا، وإنما هو ضرورة حتمية لإزالة سوء التفاهم وتبديد المخاوف

والشكوك، وبعد أن أصبح مصير البشرية المشترك على هذه الأرض مهددا بالزوال في ظـــل تفاقم المشاكل المتعددة الأبعاد، التي لا تخص دولة دون أخرى كمشاكل البيئة والسباق الجنوني نحو التسلح والحروب والفتن والمجاعات والأمراض المستعصية التي تفتك بالملايين بين البشر كل سنة، حتى ليبدو لذوي البصائر أن الإنسان أخطـــأ طريقه وأنه سائر لا محالة نحو الانتحار الجماعي ما لم يتداركه الله باللطف والحرمة.

إن حضارتنا الإسلامية التي تأسست على الرحمة والسلام والمحبة تقدم أسمى ما وصلت إليه عبر تاريخها الطويل من تسامح، بما لها من زخم إنساني أثبت جدارته وفاعليته عبر العصور في تقدم البشرية، وسهل سبيل التعارف والتلاقح بين الحضارات المختلفة، وأتاح مساحة كبيرة من الآمان والاستقرار، ودعا إلى السلام مع كل الأديان والمعتقدات.

ولابد إذا أردنا تحقيق ما نصبوا إليه أن نستعيد ثقتنا بأنفسنا وحضارتنا ونأخذ بزمام المبادرة ولا نبقى متأثرين منفعلين نأخذ ولا نمنح، نقبع في خنادق اليأس مستسلمين للقدر بعد أن لم يجد البكاء على الأطلال وعلى الأمجاد المأثلة، وكيف لا نستطيع التأثير في مجريات الأمور ونحن نكون كتلة تربو على الخمسين دولة ويزيد سكانها على المليار.

إننا في عالم لا يرحم الضعيف ولا المتواني ولا يأخذ بأيدي المتقاعسين المتأخرين عن الركب، عالم تزداد فيه الهوة عمقا كل يوم بين الفقراء والأغنياء وبين الشمال والجنوب.

ومع ذلك فلابد من النهوض من هذه الغفوة التي طـــال أمدها، ونمسح عن أنفسنا غبار التهم التي وصم بها الإسلام والمسلمون من نعوت التطرف والتعصب والإرهاب، وفي الكتاب والسنة أمثلة ساطـــعة على تلك الروح السامية من التسامح. "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ".

فالعنف والتطرف والتعصب ليس من شيمنا، وما شق الإسلام لنفسه طريقا إلى القلوب والعقول ودخل الناس فيه أفواجا إلا لنبذه العنف ودعوته إلى التسامح ونشر المحبة والألفة بين الناس.

فهذا الشاعر العرفاني الأكبر حافظ الشيرازي كان كما يقول فيه "روجيه غارودي" ترجمان الضمير الإسلامي اللطيف الذي لا يميز بين الشعوب والأعراف والألوان والقبائل إلا بالتقوى، ولنا مثال كذلك في الصوفي الكبير محي الدين بن عربي الذي انتشرت تعاليمه في العالم كله كان الحب رسوله إلى البشرية جمعاء:

أدين بدين الحب أنّى تَوَجّهَت

ركائبه فالحب ديني وإيماني

ولا تنقصنا الأمثلة الساطـــعة من تاريخنا الحضاري في الأندلس بالذات وذلك حينما هبت جماعة متعصبة مارست الاستفزاز ضد العقيدة الإسلامية أيام عبد الرحمن الثاني وكادت توقظ فتنة نائمة إلا أن الأمير لم يجابه تلك الجماعة بالعنف وهو في عز قوته ومنعته، فكان الحوار سبيله إلى احتواء تلك الفتنة لم يتهم فيها المسيحية بالتعصب والتطرف وإنما سعى إلى عقد "مجمع مقدس برئاسة أسقف اشبيلية وممثل مسيحي عن الأمير وانفض المجمع عن التنديد بالحركة وعدَّت مارقة عن التعاليم الكنسية المسيحية.

ومع وجود الأكفاء من الشخصيات الإسلامية فقد كان الخليفة الناصر لا يجد غضاضة في إرسال سفراء من اليهود والمسيحيين بينه وبين الأمم الأخرى كما لم يخرج من استكتابهم واستشارتهم، فهذا كله غيض من فيض لا يسمح المقام للتوسع فيه.

إن العالم اليوم يمر بظروف قاتمة ألقت بسُدُفِها على الأمة الإسلامية لتعيش حالة من التشرذم والخلافات وصعود المد الإرهابي الذي أصبح يهدد مصائر تلك الشعوب ويضر بها في مصالحها وهويتها ودينها، مما يجعلها لقمة سائغة ومعبرا لمنتحلي الأعذار يبغونها عوجا وهيمنة، فلابد من التسلح بسلاح اليقظة وتفويت الفرص على محترفي العنف والتقتيل، ولا نكتفي بالتنديد والشجب، بل لابد من إصدار الفتاوى بالتجريم والتحريم، لأن الإرهاب وحش أعمى سيطول الجميع.

وعلينا جميعا أن نجتث جذور الإرهاب من أصوله فنستغل التطور الهائل لوسائل الإعلام والاتصال ونطلق الملكات الإعلامية في الدول الإسلامية من عقالها لكي تعبر بحرية عن الحقائق وتعرف بمبادئ ديننا الإسلامي الحنيف الذي ينبذ العنف والتعصب، كما يجب أن نفسح لشعوبنا فضاء من الحرية وإشعارها بالمسؤولية لتعبر عن طموحها إلى عيش كريم بعيدا عن روح التسلط والاستبداد.

ولا يجب أن يغرب عن أذهاننا البعد الاقتصادي والاجتماعي البائس لتلك الفئة الضالة من المجتمع التي ألقت بها ظروف اليأس والفاقة والكراهية والحقد في أتون العنف والتدمير.

إننا نعيش مرحلة مصيرية حاسمة تستدعي المزيد من الوعي والإدراك بما يجري حولنا في العالم من تقليص لسيادة الدول في ظل عولمة جارفة، نريدها أكثر إنسانية معترفة بخصوصية ثقافاتنا المحلية ومستجيبة لطموحات شعوبنا في العدالة والمساواة والحرية.

وهذه الوتيرة المتسارعة من تطور وسائل الإعلام والاتصال التي أصبح فيها العالم على حد تعبير أحد الملاحظين قرية صغيرة، أدت إلى انحسار الحدود التقليدية مما سيفضي إلى زعزعة قيمنا الثقافية والأخلاقية، ما لم نتحصن بمبادئ حضارتنا الإسلامية ونستوعب بوعي متطلبات الحداثة والعصرنة، ونجهز أنفسنا فكريا ونفسيا لدخول القرن الواحد والعشرين، وما يتطلب من تطور وتغيير.

إنها تحديات حقيقية لا مجال فيها للمتقاعسين والكسالى والمتخاذلين.

إن العالم الإسلامي غدا في مثل هذه الظروف في أمس الحاجة إلى ابتكار ديناميكية جديدة تضع ضمن أهدافها التصدي للخلافات وإصلاح ذات البين لمواجهة الرهانات وإعداد خطة علمية وواقعية لمواجهة حملات التشويه والإساءة التي توجه للمسلمين.

أيها السادة الأفاضل، أيتها السيدات الفضليات،

إن هذا الثراء الثقافي والمعرفي الذي تتميز به حضارتنا الإسلامية وهذا التنوع الذي أغنى البشرية في مجالات المعرفة والفنون لا ينبغي أن يذهب أدراج الرياح تحت زحف عواصف العولمة العاتية وما تريد فرضه من نمط فريد ورؤية ثقافية واحدة على العالم أجمع وهو عدوان صارخ على تراث إنساني هائل أسهمت البشرية عبر آلاف السنين في تأسيسه وتشييده.

ولكن ذلك لا يعني بأي وجه من الوجوه أن نغلق على أنفسنا الأبواب والنوافذ فنصد رياح التغيير التي باتت مطلبا للجميع، إذا أراد البشر حياة متناسقة على هذا الكوكب.

ولا شك في أن الإصلاح الثقافي وتطـــهيره من شوائب التطرف والغلو والتوجس من الآخر، والتخلص من القوالب والعقليات المتكلسة التي اخترقت مجتمعاتنا الإسلامية، وأفرزت سلوكات دموية تكفيرية تضع حدودا وهمية من العقد والتخلف بين "دار السلام والأمان" و"دار الحرب"، وكذا من التقليد، أو التنكر، لموروثنا الثقافي، الذي يبعدنا أو يخرجنا عن أصالتنا، وعن خصوصياتنا، ويضعنا كأمة في حكم التبعية للغير.

ولا شك في أن ذلك الإصلاح المنشود بات أكثر من ضرورة شريطـــة الإمعان في النظـــر إلى مصادر الإسلام الأساسية وفتح الباب للاجتهاد والتأويل

لاستكناه الحقائق الخالدة في ذلك التراث والسعي إلى خلق بدائل أو المشاركة الفعالة في تطوير النماذج المقترحة من الغرب.

ولن يكون ذلك ممكنا إلا إذا انتهجنا أفكارا وسطية مستنيرة نبذل الجهد في نشرها في مجتمعاتنا، بإشاعة ثقافة التسامح والتفتح، وتطوير مناهج التعليم وتنشئة الأجيال على محبة الآخر، ومحاربة روح العدوانية، وغرس ثقافة الحوار الواعي والمسؤول من خلال المؤسسات العلمية المتخصصة، وتشجيع التبادل الثقافي والسياحة الثقافية بين البلدان الإسلامية.

ولاشك في أن ذلك كله سيساعد حتما على تعزيز روح التفاهم والتآزر بين المسلمين في شتى بقاع الدنيا.

إنه لمن المؤسف حقا أن وضع المسلمين لم يتغير وكأن هناك قطيعة فكرية ومعرفية مع التراث الثقافي الإسلامي بكل ما فيه من شواهد وإنجازات عدت منذ القديم منطلقا ومرتكزا للحضارة الحديثة لم يعرف أبناؤها كيف يستغلون كنوزها فباتوا يتخبطون في ظلمات الحيرة والتردد بينما شق غيرهم الطريق إلى المستقبل والتغيير.

إن من أهم أسباب القطيعة بين الإسلام والغرب تكمن في أن نظرة الغرب الدونية إلى العالم الإسلامي لم تتغير منذ مئات السنين، فما زال يرى في العالم الإسلامي العجز عن مواكبة الحداثة، ومن ثم بات الصراع مع هذا العالم ضروريا في نظره.

وقد جسدت هذه الرؤية الخاطئة نظرية صدام الحضارات ونظرية نهاية التاريخ اللتين وإن أقنعتا الكثير إلا أنهما لم يصمدا أمام التمحيص العلمي والحقائق التاريخية وكان البديل الذي لابد منه هو الحوار الحضاري الذي يعد مقوما أساسيا من مقومات حضارتنا.

أيها السادة الأفاضل، أيتها السيدات الفضليات،

لا ريب في أنكم، وفقتم في اختيار موضوع مؤتمركم حول مدى تأثير العولمة على التنوع الثقافي، والحق في الاختلاف بين الأمم والشعوب في التقاليد والمسلكية، والمعطيات الحضارية الأخرى التي تقوم عليها خصوصيات المجموعات البشرية، وهي موجودة بدرجات مختلفة حتى في المجتمع الواحد، ولا تمثل عائقا أو دافعا للخوف والكراهية، إذا لم تؤججها سياسات قصيرة النظر وإيديولوجيات متطرفة وطائفيات مغلقة، كبدت كلها الإنسانية ملايين الضحايا وألحقت بعالمنا الكثير من البؤس والدمار.

لقد عرفت الإنسانية سلسلة من الكوارث مثل حروب التطهير العرقي والفتن التي أشعلتها طوائف حرفت تعاليم الأديان السماوية الداعية للتسامح والعفو عند المقدرة، والتقارب بين بني الإنسان، بغض النظر عن عقائدهم ومذاهبهم وأصولهم الإثنية، وهذا شأن ديننا الإسلامي الحنيف الذي أوصى في الذكر الحكيم باحترام الاختلاف، والدعوة بالموعظة الحسنة، ووصف الله سبحانه وتعالى الرسول الأكرم بأنه على خلق عظيم، من أبرز خصاله الرفق والرحمة، يقول تعالى: " وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ "

إن الإسلام دين عالمي وعولمي أيضا، إنه عالمي لأنه لا يرتبط بعرق، أو بحيّز جغرافي محدد يفضل أهله غيرهم في مناطق أخرى من كوكب الأرض، إنه مُثُل ومبادئ، تجمع بين الروحانية النقية وحرية التفكير والتعبير، وهو في نفس الوقت دعوة حثيثة للعمل المثمر والنافع للفرد والمجتمع، ويحمل الفرد المسؤولية الشخصية عن أفعاله التي يستحق عليها الثواب أو العقاب "فكل نفس بما كسبت رهينة".

وهو حضارة عولمية اشتركت في بنائها العديد من الأمم والشعوب العلماء والقادة من المسلمين وغير المسلمين مثل النصارى واليهود وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، وقد تولى العديد منهم مسؤوليات، تحت لواء الاحترام الأخوة

الإنسانية، ولم تمارس عولمة الإسلام أي تمييز عرقي أو مذهبي بين الأجناس والثقافات الأصلية التي بقيت حية في كل البلدان التي اعتنقت الإسلام إلى اليوم، ولم يظهر التعصب والتناحر بين الطوائف والمذاهب، وإقامة الحواجز والأسوار المفتعلة بين الأعراق والثقافات، إلا في فترات التدهور والانحطاط.

لاشك في أن من أسباب ازدهار الحضارة الإسلامية، وانفتاحها الكبير على الثقافات الأخرى، هو احترام التنوع الثقافي وخصوصيات الشعوب والمجموعات المحلية، مما جعل الكثير من الأمم تعتنق الإسلام تلقائيا بعيدا عن الترهيب، ولذلك توزعت مراكز الإشعاع العلمي والثقافي والفني على مجمل العالم الإسلامي في آسيا وإفريقيا وأوروبا، ولم تقتصر على حيز جغرافي واحد يفرض سيطرة مركزية وتوجيها واحدا للفكر والثقافة.

أيها السادة الأفاضل، أيتها السيدات الفضليات،

هذا توصيف سريع جدا لعالمية الإسلام وعولمته الثقافية قبل أن تلم بأهله نوائب الدهر، ويتراجع المسلمون إلى الصفوف الخلفية، بسبب ركود العقل، وتزايد الفتن التي نخرت كل أقطاره من الداخل، مما أغرى به قوى الهيمنة والعدوان المتربصة بها، فتكالبت عليها واقتسمتها كغنائم سهلة، وأذلت شعوبها، ونهبت ثرواتها، وعملت على تثبيتها في حالة من التخلف المزري والتبعية.

أما العولمة بمعناها الشامل فهي كما تعلمون ظاهرة قديمة العهد، إنها نتيجة لحركية تطورية طويلة الأمد، شاركت فيها الكثير من الثقافات والحضارات قبل مئات السنين، غير أن انتشارها الواسع والأكثر فعالية، واكب الثورة الصناعية التي بدأت في أوروبا الغربية في القرن الثامن عشر قبل أن تمتد إلى شمال أمريكا.

لقد بلغت العولمة في نهاية القرن العشرين أوجها، بسبب التقدم المذهل في تقانات الحاسوبية، وشبكات المعلوماتية "الإنترنيت"، والذكاء الاصطناعي،

ووسائل الاتصال وخاصة الإرسال التليفزيوني عن طريق الكواكب الصناعية، والتحكم المتزايد في المشهد الافتراضي الذي يسمح بالمشاركة الآنية في أي لقاء أو مداولة تحدث على بعد مئات أو آلاف الأميال.

من المعلوم كذلك أيها السيدات والسادة، أنه لا يوجد تعريف للعولمة بمعناها الشمولي والكوكبي، يحظى بقبول وإجماع المفكرين والخبراء في شؤون السياسة والاقتصاد والتجارة والتكنولوجيا والباحثين والنقاد المختصين في مجالات الإبداع الفكري والأدبي والفني، أما فيما يتعلق بعولمة الثقافة في مدلولها الذي يمكن ملاحظته وقياسه فهي تعني سهولة تنقل المنتجات الإعلامية والثقافية والفنية وأسلوب الحياة عبر كل أرجاء العالم.

ويعود الاختلاف في تعريف العولمة وتباين الآراء حول مدلولها وآثارها إلى ردود الفعل التي تبديها منظمات المجتمع المدني في عالمنا المعاصر، وإلى تعدد التقييم والموقف في المجتمع الواحد، وتتراوح تلك المواقف والآراء على العموم بين القبول والرفض، فبينما يعتبر البعض سيولة المعلومات وسهولة التواصل والتوصيل التي اختزلت الزمن والمسافات، وألغت الحواجز والتأثيرات، تباشير عالم يَدَمَقْرَطْ في إطار ثقافة كونية، ليصبح كما يقال قرية بيوت متلاصقة وشوارع متقاطعة، يعرف كل ساكن فيها ما يجري داخل بيوت جيرانه، وهو مقيم في بيته ويتلقى ويبعث ما يشاء من الرسائل بدون حسيب ولا رقيب وينمي رصيده المعرفي والثقافي بأقل جهد وأبخس الأثمان.

يعترض الرافضون للعولمة في صورتها الراهنة، ويحذرون من مخاطرها على التنوع الثقافي الذي ميز البشرية منذ أقدم العصور وهو مصدر الثراء والإثراء المتبادل بين الشعوب، فكل ثقافة هي في الحقيقة ثقافة مفردة (Singulière) تضيف ثروة متميزة ولمسة جديدة ولونا ومذاقا خاصا للتراث الكلي للإنسانية.

لاشك في أن تنميط الثقافة في نموذج واحد، مهما كان تفوق منتوجه العلمي والإبداعي سيؤدي إلى إضعاف أو إلغاء التنوع الثقافي، ويسفر حتما عن خسارة لا تعوض للثقافة الإنسانية، لذلك تجتهد كثير من دول العالم في إنقاذ معالمها وترميم آثارها المتبقية قبل فوات الأوان وتقوم المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) بحمايتها من الإندثار وإدماجها في التراث المشترك للإنسانية.

أيها السادة الأفاضل، أيتها السيدات الفضليات،

من المفيد والمستعجل أن تعمل النخب الفكرية والقيادات السياسية والمنظمات الجهوية والدولية، على الوصول إلى حوار ثقافي متكافئ يعترف بالتنوع ويحترم خصائص كل شعب أو مجموعة ثقافية، بلا أفكار مسبقة، وأحكام قطعية تصنف البشر إلى أعلى وأدنى بناء على اللون أو الجنس أو العقيدة. إن الوصول إلى حوار ثقافي متكافئ، هو المفتاح الأول لنجاح مستويات وميادين الحوار الأخرى، بين الدول والشعوب والمنظمات المعنية في شتى أنحاء العالم.

لقد برهنت سلسلة الحروب والصراعات الدموية في تاريخ الإنسانية، البعيد والقريب أن الخوف من ثقافة الآخر ودينه، والتخويف بهما، كما هو الحال في السنوات الأخيرة فيما يسمى الإسلاموفوبيا قد غذيا الحقد والكراهية وأديا إلى المذابح الوحشية.

إن احترام القوانين والإلتزام بالتشريعات السارية في أي بلد واجب ينبغي التقيد به في كل الأحوال، وهو حق لا جدال فيه، وممارسة شرعية للسيادة الوطنية، غير أن ذلك الاحترام والالتزام، لا ينبغي أن يتحول إلى ستار وذريعة لاضطهاد الثقافات والحضارات الأخرى أيا كانت مضامينها وأشكال التعبير الخاصة بها، وتجديد وسائل هيمنة الأقوياء، والأغنياء، ومن الدول على الذين

استضعفوا في الأرض حتى أصبحوا لقمة سائغة، لأقطاب تطـغى فيها الشراهة العنجهية، على القناعة والعفة.

إن الوصول إلى ذلك المستوى المرغوب من التسامح والتقبل والإثراء المتبادل بين الشعوب، سيساهم بلا شك في إرساء دعائم السلم والتقارب والتعاون على مستوى العالم بأسره، ويضمن الاستقرار والتنمية الشاملة داخل بلداننا التي تتعرض من حين لآخر، إلى اضطرابات ونزاعات مهلكة، تعوق انسجام مجتمعاتها، وتعطل مسار التنمية وترسيخ الديمقراطية، ولابد أن يكون المبدأ العام والممارسة الرشيدة للحكم هي أن الدولة للجميع وأن الجميع شركاء في بنائها ولا فضل لأحد على غيره إلا بالجهد والكفاءة والاستحقاق.

أيها السادة الأفاضل، أيتها السيدات الفضليات،

تثبت أية متابعة نزيهة للتاريخ الموثق للإنسانية أن التنوع والتعدد الثقافي هو الأصل وأن التماثل والتطابق التام هو الشاذ والنادر، ففي دراسة حديثة لأحد الباحثين عن خريطـة التوزع الثقافي على مستوى العالم، تبين أن عدد البلدان التي تتوفر على تماثل عرقي ديني – ثقافي لغوي – بنسبة 100% لا تزيد على عشرة بلدان، من بين 160 بلدا التي تم مسحها ميدانيا، وأن البشرية تستعمل 6000 لغة مكتوبة أو شفهية، بمتوسط لا يقل عن 26 لغة ولهجة ومجموعة محلية بثقافات فرعية متميزة.

لقد تفطّن ساسة وعلماء في الغرب إلى خطورة القولبة والنمطية الثقافية الصادرة من ثقافة واحدة تكون المرجع الوحيد لكل البشرية، وتضع وحدها معايير الحق والعدل والحرية والديمقراطية وكل القيم المقبولة والمرفوضة، وتفوض نفسها الحق في تغيير أنظـمة التربية وتوجيه معتقدات الناس بما يلائم هواها وفرض أنماط من التفكير والسلوك، بحجة أنها تصنع التاريخ المعاصر بحكم ما تتوفر عليه من ثروات وتحكم في أحدث العلوم والتقانات وما لديها من عدد وعتاد.

أيها السادة الأفاضل، أيتها السيدات الفضليات،

تصل إلينا في السنوات الأخيرة أصداء من الخطاب الثقافي وأحيانا السياسي من الغرب تحذر من النمذجة Moddling فيما يسمى حضارة الكوكاكولا وتطالب بالاستثناء الثقافي، وخاصة في المجال السمعي البصري السريع الانتشار والتأثير في الجمهور، والقابل للتسليع Marchandisation ، الأمر الذي يجعل الإبداع مجرد بضاعة ويحول المنتوج الفكري والفني إلى متاع خاضع لقوانين العرض والطلب في سوق عالمية بلا حدود.

وحتى في البلدان السباقة في مجال التصنيع وتكنولوجيات المقدمة، فإن هناك بين النخب الفكرية من يدعو إلى إحياء التقاليد العريقة للمجتمع في عهد ما قبل التصنيع، والعناية بالتراث القديم، بما فيه الصناعات التقليدية والفنون الشعبية العتيقة التي تحمل بصمات التنوع الثقافي داخل البلد الواحد، وبالمقارنة مع محيطه الحضاري الواسع.

لقد أدركت الجزائر في وقت مبكر الخلل الكبير، في مجال التدفق الإعلامي والثقافي بين شمال العالم وجنوبه، وطالبت في مؤتمر عدم الانحياز الذي انعقد في بلادنا سنة 1973، وعلى منبر الجمعية العامة للأمم المتحدة، أقول طالبت بنظام عالمي للثقافة والاتصال أكثر عدلا وإنصافا وواصلت الجزائر ذلك المسعى خلال سنوات عديدة، وأثمر مسعاها بمصادقة اليونسكو سنة 1978 على إعلان المبادئ الأساسية الذي يقر الحق في المساواة في صناعة مضامين الإعلام والوصول إليه وبثه، كما دافعت لجنة الخبراء برئاسة، سين ماك برايد (Sean Mc Bride) الحائز لجائزة نوبل ومؤسس منظمة العفو الدولية عن ذلك المبدأ في تقريرها الذي حمل عنوان «أصوات متعددة وعالم واحد» الذي تضمن تشخيصا مفصلا للاختلالات في مجال الثقافة والإعلام بين شمال العالم وجنوبه الذي ينتمي إليه أكثر من خمسين بلدا الأعضاء في منظمتنا.

ولتعزيز مسعى التفاهم والحوار استضافت الجزائر لقاء 5+5 قبل بضعة أسابيع بمدينة وهران لتوطيد التقارب والتعاون، وبناء علاقات إنسانية بين شعوب ضفتي المتوسط باعتباره حوض حضارات ساهمت فيها بلداننا وهي إرث مشترك لنا جميعا، تتشابه وتختلف، وهذا هو سر حيويتها، والأرضية الخصبة التي ينبغي على النخب المفكرة والسياسية هنا وهناك، أن تعمل بلا هوادة على إزالة الشكوك والمخاوف سواءا كانت حقيقية أو وهمية.

أيها السادة الأفاضل، أيتها السيدات الفضليات،

اسمحوا لي في ختام هذه الكلمة، أن أشير إلى ثلاث مسائل تبدو لي على درجة كبيرة من الأهمية:

أولها: أن طوفان العولمة الثقافية والإعلامية ليس نعمة ولا نقمة، إذا أدركنا جميعا بأنه لا مناص من القيام بفرز شجاع، وقد يكون مؤلما لقائمة طويلة من قيمنا الموروثة من عهود التخلف والانحدار، وقيم أخرى فقدت وظـيفتها التي كانت مفيدة وإيجابية في عهود سابقة، وأن تتجه النخب ومنظـمات المجتمع المدني إلى الإسراع في تطبيق المناهج والمسلمات الثابتة في العلم الحديث والمعاصر في تنظـيم المجتمع ومؤسساته.

وثانيها: إن الإسلام مثل الأديان السماوية الأخرى هي كلها في أصولها براء من أخطاء وخطايا بعض معتنقيها الضالين والضائعين في متاهات التعصب والعنف والإرهاب المقيت، فالإسلام روحانية تدعو للتراحم والتعارف بين كل بني الإنسان، مهما كانت عقائدهم ومذاهبهم وأجناسهم، فلم يحصر الإسلام المودة والتعارف بين المسلمين فقط، فقد جاء كما أسلفنا في الذكر الحكيم "وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" والشعوب والقبائل بصيغة الجمع، لا يتبعا كما تلاحظـون أي تخصيص لدين أو لون أو ثقافة.

ولابد كذلك من التنبيه إلى أن الأغلبية الساحقة من المسلمين، لا تضمر حقدا أو كراهية للغرب، ولكن لا يمكن لمثقفيها والناشطين في منظمات المجتمع المدني أن يكونوا أقل تنديدا واحتجاجا من نظرائهم في البلدان الأخرى، وفي الغرب خاصة الذين يستنكرون مساوئ النظام العالمي الجائر، ويظهرون استيائهم من سلبيات العولمة في مسيرات عارمة، وما تخفي من استراتيجية، لا يدركها إلا من تضلعوا في الموضوع.

وثالثها: يجب أن لا نتغافل ونحن نجتاز هذه المرحلة الحرجة من تاريخ أمتنا عن الانعكاسات السلبية والإكراهات العديدة التي تحيط بكل بلداننا، وخاصة بعد أحداث 11 سبتمبر من سنة 2001 الإجرامية التي أدت إلى مزيد من الضغوط على المنطقة العربية والإسلامية، وشجعت أوساطا يمينية متطرفة في الغرب على شن حملات عدائية على الإسلام والمسلمين، واتهامهم بالإرهاب جملة وتفصيلا، ونشر الحقد والكراهية لتاريخهم وثقافتهم وعقيدتهم.

لقد وجدت تلك الأوساط فرصة لإشعال الحروب الصليبية من جديد والعثور على عدوّ مزعوم والترويج لما يسمى الصدام الحتمي بين الحضارات في تنكر سافر لمبدأ نادت به كل الشرائع السماوية ويريده العقل السليم، ألا وهو وحدة الإنسانية في المبدأ والمعاد، متناسية أن الحضارة هي دائما في وضعية انتقالية، هي سر التنوع والثراء الثقافي للبشرية جمعاء وليست حكرا على جنس، ولا على مرحلة تاريخية دون غيرها، إن تاريخ الحضارات ووتيرة تعاقبها لا يبدآن بقرار ولا ينتهيان بقرار منذ فجر الإنسانية وإلى آخر الدهر.

إننا على ثقة بقدرة أمتنا ومجتمعاتنا على الخروج من هذا المأزق التاريخي، إن خصمنا الحقيقي هو التخلف الموروث والمتراكم، كما أن تأخرنا عن ركب المقدمة ليس حتمية أبدية ولا قدرا محتوما على شعوبنا، بل إننا نرى أن المستقبل رهن إرادتنا، وعلينا أن نصنعه بعقولنا وأيدينا، وأن نسرع في استيعاب روح

عصرنا، وأن نتحكم في المدى المنظـــور في شروط النهضة، والقيام بالدور المطلوب من أمتنا لنشر السلم والتقارب بين الأمم والشعوب لتنعم الإنسانية جمعاء بالحرية والعدل والرخاء.

إنني، أزجي لكم خالص الشكر والامتنان، على ما أتحتموه لي من فرصة ثمينة، لأدلي بدلوي في موضوع لا يدنو منه إلا المتخصصون، ولست منهم ولكن بفضل الله الذي جعل رحابة صدركم واسعة، تفضلتم، وأخانا وصديقنا العزيز الأستاذ الدكتور عبد العزيز عثمان التويجري في التفاتة طيبة مرموقة، فأدخلتموني موشحا في صفوفكم كواحد منكم، فأرسلت عنان مطيتي، وجلت معكم، وتهت في أمور حساسة، حساسية جديرة بأن تكون لا محالة، في أول قائمة الاهتمامات البشرية جمعاء، خاصة منها تلك الشرائح العريضة التي تنتمي إليها في الجنوب، وأصبحت لا تعرف الطمأنينة، ولا السكينة والاستقرار، ولا الحكم بمستقبل يطـــغى عليه التفاؤل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته